الباب التاسع

من سير النساء في الجوار

الفصل الأول : قصةُ البسوس ومقتل كُليب

الفصل الثاني : زينب بنت النبي ﷺ تجير زوجها

الفصل الثالث : « قد أجرنا مَنْ أجرتِ يا أمّ هانىء »

الفصل الأول

قصةُ البسوسِ ومقتل كُليب

قصةُ البسوسِ هذهِ من القصصِ الشعبي التي يعرفها أكثرُ الناسِ ، لما ارتبطت به من رواية « الزير سالم » وأشباهها ؛ ولما كانت تحلو بها الأسمار عند هبوب نسمات الأسحار .

ـ ومنَ العجيب أنني لقيتُ أناساً يحفظون كثيراً من الأشعار والوقائع المزعومة في سيرة الزير سالم ، وينشدونها عن ظهر قلب ، وهمُ منتشون فرحون بما يقدّمون من وجبات ـ بزعمهم ـ ثقافية ، وأنَّ تاريخنا العربي مفعمٌ بالرجولةِ والبطولة والإقدام .

ـ لكن الذي يهمنا هو ما جاءَ في المصادر التي تحدثت عن حربِ البسوسِ بشكل منطقي ، وكان سبب ذلك جوار

البسوس[1] المشؤوم علىٰ ابن أختها جسّاس بن مرّة .

ـ وملخص ذلك ومحصله : أنَّ العربيّ في عصر الجاهلية كان يحرص علىٰ الوفاء لمن استجار به ، ولو كلّفه ذلك ما كلَّفه من غالي الثَّمن ؛ وحرب البسوس التي اندلعت بين بكر وتغلب عشرات السنين[2] ، وأهلكت مَنْ أهلكت من الشباب والشِّيْب ، تلك الحرب اشتعلت من أجل البسوس ، ومن أجل الحفاظ علىٰ حُسْن الجوار ، نعم حُسن الجوار .

ـ يروىٰ أنَّ البسوس ابنة منقذ التميمية ، كانت في جوار ابن أختها جسّاس ، وكانتِ البسوس قد أجارت رجلاً من قومها ، وكانتْ لها ناقة يُقال لها سراب ، وكانت رقيقة حسنة ، وصادفَ أنْ شاهدها كُليب بن ربيعة سيّد بني تغلب ،

---

(١) اسمها : البسوسُ بنت منقذ من بني تميم ، وضرب بها المثل في الشؤم ، فقالوا : أشأم من البسوس .

(٢) قيل : استمرت هذه الحرب حوالي أربعين سنة ، وكان لهم ست وقائع مشهورة أربع منها لتغلب على بكر وواحدة قد تساويا فيها ، والأخيرة كانت لبكر علىٰ تغلب .

وكانت ترعىٰ في حماه ، فرمىٰ كُليب ضرعها بسهم فاختلطَ دمُها بلبنها ، فصاحت البسوس : واذلاّه ؛ فقال لها جساس : اسكتي فلك بناقتك ناقةٌ أعظم منها ، فأبتْ أن ترضىٰ حتى صاروا لها إلىٰ عشر ، فأبتْ أيضاً ، وعرض عليها ما تشاء من الإبل فرفضت ؛ فلما كانَ الليلُ أنشأتْ تخاطبُ ابنَ أختها سعداً أخا جساس ، وترفعُ صوتها تسمعُ جسّاساً :

أيا سعدُ لا تغررْ بنفسك وارتحلْ ... فإنّي في قومٍ عن الجار أموات
ودونـك أذوادي إليـك فـإنّنـي ... محـاذرة أن يغـدروا ببنيّـاتـي
لعمرك لو أصبحتُ في دارِ لمنقذٍ ... لما ضيمَ سَعْدٌ وهو جارٌ لأبياتي[1]
ولكنني أصبحـتُ فـي دار معشـر ... متىٰ يعدُ فيها الذِّئبُ يعدو على شاتي[2]

ـ ولمـا سمعهـا جسّـاس قـال لهـا : اسكتـي لا تُـراعـي ، ووعدها أنْ يعقرَ بناقتها فحلاً أعظم منها .

---

(١) منقذ : هو أبو البسوس ، وهو من قبيلة تميم .
(٢) تسمي العرب هذه الأبيات الموثبات ، لأن البسوس لما أنشدتها أوغرتِ الصدور .

ـ وفي اليوم التالي وثبَ جساس علىٰ كليب فقتله غدراً ، فاندلعت إذ ذاك حربٌ بين الحيين دامت طويلاً ، وفي ذلك قال جساس :

إنّمـــا جـــاري لعمـــري ... فـــاعلمـــوا أدنـــىٰ عيـــالـــي
وأرىٰ للجـــــارِ حقّـــــاً ... كيمينـــي مـــنْ شمـــالـــي
وأرىٰ نـــاقـــةَ جـــاري ... فـــاعلمـــوا مثـــل جمـــالـــي
إنّمـــا نـــاقـــةُ جـــاري ... فـــي جـــواري وظـــلالـــي
إنَّ للجـــــار علينـــــا ... رفـــع ضيـــم بـــالعـــوالـــي
فـــأقلّـــي اللـــومَ مهـــلاً ... دونَ عِـرْضِ الجـار مـالـي
ســـأودي حـــقَّ جـــاري ... ويـــدي رهـــن فعـــالـــي
أو أرىٰ المـــوت فيبقـــىٰ ... لـــؤمـــه عنـــد رجـــالـــي

ـ وهي قصةٌ طويلة ، لكننا اخترنا منها ما يوافق موضوعنا[1] .

---

(١) انظر : أخبار المراقسة (ص ٢٤٨) . والعقد الفريد (٣٤٨/٣) ، مع الجمع والتصرف ، وانظر قصة هذه الحرب كاملة في كتاب : أيام العرب في الجاهلية (ص ١٤٢ـ١٦٨) .

الفصل الثاني

زينب بنت النبي ﷺ تجير زوجها

ـ أبو العاص بنُ الربيع صهرُ رسولِ اللهِ ﷺ ، وهو زوج ابنة رسول الله ﷺ الكبرىٰ زينب رضي الله عنها وأرضاها ، وهو رجل منْ رجالات مكة المعدودين في أمنائها وعقلائها وأهلِ ثرائها ، وأهل المروءات في أشرافها ، وهو ابن أخت سيدتنا خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها ، أمه هالة بنت خويلد الأسدية ، وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره ، وكان منْ أكرمِ الناسِ وفاءً في عشرته الزوجية ، وتقديره لهذا الإصهار الكريم .

ـ ولما بُعثَ رسولُ اللهِ ﷺ ، عَرَفَ أبو العاص ما كان يدعو إليه النبي ﷺ من الهدىٰ والخيرِ والتوحيد ، ولكنه كان

في شُغُلٍ عن الاستجابةِ إلىٰ الإيمان باللهِ ورسولهِ ، وآمنت زوجته سيدتنا وابنة نبينا زينب مع أمها وإخوتها في أوّل مَنْ آمنَ بالدعوةِ لم يسبقهم إلىٰ الإيمان بها أحدٌ قط .

ـ ولما طفقتْ قريش تعادي الدّعوة وتقاومها ، كان أبو العاص في معزلٍ عن طغيان قريش ، ولم تُعْرف له حركةٌ في مقاومةِ الدعوة قط ، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وشغله ماله وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلىٰ الله ؛ قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ : وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله ﷺ مصافياً .

ـ وكانت زينب رضي الله عنها تكرمُ أبا العاص ، وعندما كانت الهجرة ظلّت زينب في مكة مع زوجها ، وفي السنة الثانية من الهجرة كانت غزاة بدر وكان أبو العاص من بين أسرىٰ قريش ، وعندما علمتْ زينب بأسرِهِ ، بعثت في فدائه قلادة زواجها به ، فتوجّه رسولُ اللهِ ﷺ إلىٰ أصحابهِ في أنْ يطلقوا لزينب أسيرها ، ويردوا عليها الذي لها ، وكان ردُّ

القلادة أهم من ردّ المال عند رسول الله ﷺ .

ـ وكانَ رسولُ الله ﷺ قد أخذ علىٰ أبي العاص عندما أطلقه أن يخليَ سبيلَ زينب لتلحق به ، وتكون مع أخواتها بالمدينة ، وقد وفىٰ أبو العاص بما وعد ، وأرسلَ زينب لتكونَ في كنفِ رسول الله ﷺ .

ـ وأقامَ أبو العاص بمكة علىٰ دين قومه إلىٰ قبيل غزاة فتح مكة ، حيث خرج في تجارةٍ لقريش ، فلقيته سرية من أصحابِ رسول الله ﷺ وهو في رجوعه إلىٰ مكة ، فأخذوا جميعَ ما معه ، وأعجزهم هرباً ، حتىٰ جاء تحت جنح الليلِ إلىٰ زينب رضي الله عنها ، فاستجار بها ، فأجارته دون علمٍ من أبيها رسول الله ﷺ ، فلما خرج النبي ﷺ لصلاة الصبح وكبّر ، وكبّر النّاس ، صرختْ زينب منْ صفّة النساء : أيها النّاس إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع ! !

ـ ولما سلّم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل علىٰ الناس وقال : « أيها النّاس هل سمعتم ما سمعتُ »؟!

قالوا : نعم .

فقال ﷺ : « أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمتُ بشيء حتىٰ سمعتُ الذي سمعتم ، وإنه يجير علىٰ المسلمين أدناهم » .

ـ ثُمَّ دخلَ علىٰ ابنتهِ وقال لها : « أي بنية ، أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنَّك لا تحلّين له » .

ـ فأخبرته أنه جاء بطلب ماله ، وجمع رسول الله ﷺ تلك السرية ، وأشار إليهم بأن يحسنوا إلىٰ أبي العاص ، ويردوا عليه ما أخذوه ؛ فردُّوا ذلك بكلّ حبّ وإيمان ويقين .

ـ وهكذا أقرَّ النبي ﷺ جوار زينب لأبي العاص ، وأخبر النّاس لهم أنَّ المسلمين متكافلين يجير عليهم أدناهم .

ـ ومن الرائع والمثير حقاً في هذه القصة ، أن أبا العاص أدّىٰ الأموال إلىٰ أصحابها في مكة ، ولما أدّاها وفرغ من ذلك ، أسلم ، وقدم علىٰ رسولِ الله ﷺ مسلماً مؤمناً ، فازدادَ له إكراماً ، وردّ عليه زوجته وابنة خالته رضي الله عنها .

ـ وعاش أبو العاص في ظلال الإسلام حتىٰ لقي ربّه بعد وفاة زوجته بأربع سنين ، وذلك في ذي الحجة من السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية في خلافة سيدنا أبي بكر الصديق عليه هطائل الرضوان ، وسحائب الغفران .

* * *

الفصلُ الثالث

« قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء »

ـ منَ المثير في قصص الجار ، قصة أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ التي أمضىٰ رسول الله ﷺ مَنْ أجارته ، وقَبِلَ ذلك .

فقد كانتِ النساء في الجاهلية يُجِرْنَ الخائف ، وكانتْ تُقبلُ إجارتهن ، ولما جاء الإسلامُ حفظ للنساء المسلمات مكانتهن ، وأجاز لهنَّ إعطاء الجوار .

ـ وقد رأينا في الفصل السابق أنَّ زينب بنت سيدنا رسول الله ﷺ قد أجارت أبا العاص وأُجيزت إجارتها ، وسجّلَ تاريخُ السيرة النبوية ذلك ، لتظلَّ إجارة المرأة علامة بارزة في جبين الدّهر .

ـ فبُعيد غزاةِ الفتحِ الأعظمِ لمكةَ المكرمةِ ، أجارتْ أم هانىء ابنة أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ رجُلين من أقربائها ، كان قد حُكمَ عليهما بالقتل مع مَنْ حُكمَ من المجرمين ، وقبلَ النبي ﷺ إجارة أم هانىء ، وكان الخير بذلك ، فكيف كانتْ إجارتها؟!

ـ ذكرتِ المصادر العديدة قصة الإجارة فيما ذكرته أم هانىء قالت : لما نزل رسول الله ﷺ بأعلىٰ مكة يوم الفتح ، فرّ إليَّ رجلان من أحمائي[1] ، فدخلَ عليَّ أخي علي بن أبي طالب فقال لي : والله لأقتلنهما يا أم هانىء .

ـ فأغلقتُ عليهما باب بيتي ، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فقال لي : « مرحباً وأهلاً يا أم هانىء ما جاء بكِ »؟!

---

(١) أحماء : جمعٌ مفردها حمو ؛ وهو أبو زوج المرأة ، وأبو امرأة الرجل ، ويطلق علىٰ مَنْ كان قريباً للزوجين . أما الرجلان اللذان أجارتهما أم هانىء فهما : عبد الله بن أبي ربيعة ، والحارث بن هشام ، وهما من بني مخزوم .

ـ فأخبرتُه خبرَ الرجلين ، ثُمَّ أخبرته خبرَ أخي علي ، وما عزمَ عليه من قَتْلِ الرّجلين ، فقال لي : « قد أجرنا مَنْ أجرتِ يا أمّ هانىء ، وأمَّنَّا مَنْ أمّنتِ ، فلا يقتلهما » .

ـ وهكذا قَبِلَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ إجارةَ أم هانىء ، وعرف أصحاب رسول الله هذه المنقبة الفريدة لأم هانىء ، فحظيتْ باحترام الجميع ، وظلّ حديثُ إجارتها حديثَ الأيام والأعوام فرضي اللهُ عنها وأرضاها .

* * *